فاقد الذاكرة .. يتذكر!

فقد ذاكرته وهويَّته واسمه.

اتخذ لنفسه محلًا للإقامة في أطراف المدينة. وهو عبارة عن عشة من الخشب والصفيح، تتوسطها من الجهة البحرية نافذة صغيرة تطل على المزارع في نهاية العمارات. وتحتوي على أدوات بدائية كأنها من العصر الحجري.

كان الصبيان والبنات من أهل الحي والأحياء المجاورة في بداية معرفتهم به يهابونه ويخافونه ويرتعدون لمجرد رؤياه.

عملاق.. طويل.. عريض.. أطلق العنان للحيته وشعره وشاربه الذي يقف عليه صقر.

أصفر الوجه ذابل السحنة.. تائه النظرات، جاحظ العينين اللتين غالبًا ما تكونا حمراوين ولا تركزان على شيء.

أمـا جلبابـه فقـد تراهـن الأولاد على تحديـد لونه الأصلي، فلـم يَفُز أحدهم بالرهان؛ لكثرة الأوساخ المتراكمة عليه.

ومع مرور الأيام أحبه الأولاد وألفوه، وأصبحوا أصدقاء حميمين له.

ولذلـك فقـد اتفقوا عـلى العطف عليه، والإحسـان إليه.. فراحوا يفرقـون عليه ما لـذ وطاب من صنـوف الطعام عندما يحـل موعد كل وجبة. وكانوا يتسابقون على ذلك.

ومـن جهة الآباء والأمهات فكانوا يسـعدون بذلك جدًا، ويباركوه ويشـجعون الأولاد والبنات عـلى تقديم المزيد. حتـى انطبق عليه المثل الذي يقول «للشحات نصف البلد».

ومن كثرة خيرات الله التي تنهال عليه، اضطر أن يقوم بإطعام قطط وكلاب الحي.

وفي نهاية الأكل يشـكر الرب «رازق الدودة في الحجر»، ويُقَبّل يديه ويرفعهما إلى فوق، ويدعو للأولاد في صمت..

اعتادوا ممارسـة رياضتهم المفضلة في قيادة وسباق الدرّاجات بالقرب منـه. ممـا أتـاح لهـم الفرصـة في مراقبته، وهـو داخـل العشـة في الذهاب والإياب، فكان فمه الكبير الواسع لا يخلو من الطعام والمضغ وكأنه يجتر.

الـشيء الوحيـد الذي كان يسـبب له حرجًـا بالغًا ويـندي له جبينه هومراقبة الأولاد له عند قضاء حاجته خلف العشة.

يـا له من عملاق عجوز، مخيف، مرعب! وسـبحان الله الذي حبب فيه الأطفال.

ولـولا ترهـل عضلاته وإعيائـه الواضح على قسـمات وجهه، لكان بمقدوره أن يحرك إحدى العمارات المجاورة بسكانها من مكانها.

اقـترح بعضهـم عمـل مفاجأة لعم (صابـر) كما يسـمونه. حيث أن أحدًا لم يعرف اسمه الحقيقي حتى يومنا هذا.

وهذه المفاجأة المقترحة هي المسـاهمة في شراء كسـوة له؛ نظرًا لسوء الحالـة التي وصـل إليها هندامه. وسرعـان ما وصلت هـذة الفكرة إلى الآبـاء فلاقـت تأييدًا جماعيًا منهم، ورحبوا بها بشـدة؛ مشـجعين بنيهم وبناتهم على الاستمرار في عمل الخير والعطف والإحسان على المساكين والفقراء وذوى الحاجة..

وفعلًا تم التنفيذ بمعرفة لجنة مكونة من بعض الأبناء والآباء.

وقبـل تقديـم الهديـة إلى الرجل طرح أحـد الأولاد سـؤالًا وجيهًا: كيـف يمكن لعم صابر ارتداء الملابس الجديدة النظيفة وهو يحمل فوق جلدة هذا الكم الهائل من الأتربة والقذارة؟

والحق أن هذا السـؤال تسبب في خلق مشكلة جديدة في نظر أطفال في مثل سنهم فصاحوا جميعًا في صوت واحد:

لابد من الاستحمام.. لابد من الاستحمام.

وانتقلت هذه الفكرة أيضًا بسرعة البرق إلى الآباء، ومنهم عم (خليل) البواب الرجل الصعيدي الشهم الذي رحب بالفكرة، وتعهد بتنفيذها بطريقته الخاصة. بدأ عم (خليل) في التنفيذ، وإمعانًا في أداء مهمته على أكمل وجه، وإرضاءً لضميره وشهامته قرر أن يقص للرجل شعره ويحلق له ذقنه ويشذب شاربه..

وعلى الفور تم استدعاء الأسطى (خميس) الحلاق الذي أتى متأبطًا حقيبته التي عفى عليها الزمن. وتوجه بصحبة فريق من الأطفال إلى عشة عم (صابر). وما أن لمحهم حتى ارتجف بدنه الضخم، وبدا شبح ابتسامة على شفتيه، مما يوحى بأنه أدرك الغرض من الزيارة.

قام الأسطى (خميس) بأداء دوره بهمة ونشاط لفت أنظار الحاضرين. فأُعجب به الأطفال أيما إعجاب، ومنحوه أجرًا سخيًا. انصرف على أسره مسرورًا مبتسمًا بعد أن ختم عمله. وكان لايزال يتحسس ذقن عم (صابر) للتأكد من نعومتها، بكلمة «نعيمًا»، ثم رددها من بعده الأطفال، أما عم (خليل) فقد قال له:

نعيمًا يا عريس!

وغمز بعينه العمشاء للأسطى (خميس) أن يسبقه إلى المكان المتفق عليه. وهو عمارة تحت التشطيب يعمل بها عم (خليل) وزوجته، وهي ليست بعيدة عن عشة عم (صابر).

وفي تلك اللحظة، أتى أحد الصبية ومعه أدوات الحمام اللازمة. وتوجه الجميع إلى العمارة. وكانت زوجة عم خليل قد قامت بدورها هي الأخرى على ما يرام، فأحضرت (بستلة) كبيرة مملوءة بالماء المغلي، ووضعتها في الحمام (مشروع الحمام) بالإضافة إلى الأدوات اللازمة. وارتسمت فرحة غير عادية على قسمات عم (صابر) وهم يأخذونه إلى الحمام في موكبٍ مدهشٍ.

وكان يضحك ويقهقه كما لم يضحك في حياته من قبل، وكانت السعادة (تنط) من عينيه. ذلك دون أن ينطق بكلمة واحدة.

ألبسوه ملابسه الجديدة وسط زغاريد بعض النسوة اللاتي حضرن خصيصًا للفرجة عليه. بينما الأولاد يصفقون ويقفزون إلى أعلى في سعادة غامرة.

مشط له الأسطى (خميس) شعره وشاربه، ولم يبخل عليه ببعض قطرات من قارورة طيب عتيقة بحث عنها في حقيبته حتى وجدها بعد عناء. فبدا الرجل وكأنه عريسًا (بحق وحقيقي).

زفّوه حتى باب العشة. وكان الظلام قد أوشك، فأضاءت المساكن أنوارها. وشاهد الآباء والأمهات والإخوة والأخوات الموكب من الشرفات والنوافذ فاكتملت فرحتهم وسعادتهم..

ومن قبيل المزاح نزل أحد الآباء، ولحق بالموكب على باب العشة، واقترب منه وشرع في عمل (حديث صحفي) معه. لعل وعسى يكشف عن شيء من غموضه وسبب صمته الرهيب، سأله:

متى وأين كان آخر حمّام لك يا عم صابر؟

وجاءت الإجابة بالصمت ونظرات الدهشة..

كرر السؤال مرة ثانية بنبرة استعطاف..

متى وأين كان آخر حمّام لك يا عم صابر؟

وفي ذهول ودهشة الجميع.. خرج الرجل من صمته.

ونطق لأول مرة منذ سنوات.. قال بصوتٍ رخيمٍ

من أين أتيتم باسم (صابر) الذي تنادوني به؟

وعندما وصل ذهول الواقفين إلى قمته، ولم يحصل على إجابة سؤاله، أكد وهو يضغط على الحروف:

أنا اسمى (هيبة الفالح تيجاني) من أعيان محافظة الفيوم. وكنت عضوًا بمجلس الشعب عن إحدى دوائرها في يوم من الأيام.

ولاحظ الجميع أنه كان يتكلم بلغةٍ سليمةٍ. ولكنه كان يصمت بين الكلمة والأخرى بعض الوقت..

وكرر له السؤال للمرة الثالثة:

متى وأين كان آخر حمّام لك يا عم صا.. هيبة؟

كان آخر حمام لي بقصر والدي شيخ العرب (الفالح تيجاني) بإحدى قرى الفيوم ليلة زفافي.

فانتبه الحاضرون أكثر وكأنهم في حلم..

ومتى كان ذلك؟ أين تزوجت؟

فأجاب بحسرةٍ بدت واضحة على قسماته:

للأسف لم يتم الزواج.. أخذوها مني.. خطفوها مني..

وبصوتٍ واحدٍ سألوه:

من هم يا عم هيبة؟

علا صوته وتشنج:

أولاد الحرام.. الله يخرب بيوتهم مثلما خربوا بيتي، منهم لله.

وازداد تشنجه عندما سأله أحد الأطفال:

وماذا كان اسم العروسة يا عم هيبة؟

لم يرد عليه وعاد إلى صمته.. وسار حتى اقترب من عشته فتركوه، وعادوا أدراجهم والدهشة لم تفارقهم..

في صباح اليوم التالي استيقظ الأطفال في ساعة مبكرة. وكانت فرحتهم لا تُقدّر.. لأن عم (هيبة) تكلم وسوف يتكلم معهم.. سوف يرونه في ملابسه الجديدة الزاهية الألوان ونعله الجديد.. فالكل على موعد معه..

إن الرجل بلا شك سوف يفرح بهم أيضًا، ولن يعد يخجل منهم أبدًا بعد اليوم.

توجهوا إلى عشته.. لم يجدونه قابعًا أمامهم كالمعتاد.

تساءلوا: أين ذهب؟

لابد أنه يقضي حاجته خلف العشة.. انتظروا قليلًا فلم يعُد.. بحثوا عنه حول العشة فلم يعثروا له على أثرٍ.

ليس من عادته أن يظل نائمًا حتى هذه الساعة.

وأخذت فرحتهم وسعادتهم تهرب من وجوههم تدريجيًا.

لقد بدأوا يشعرون بخسارة فادحة لم تصادفهم من قبل

وخيم الحزن على الحي بأجمعه..

وظلـوا يبحثون عن الرجل ثلاثة أيام بلياليهم، ولم يعثروا له على أثر حتى اليوم..

أين البط الجميل ذو الريش الملون؟؟